نشاطي فكان ذلك سبباً الى تواليف لي عظيمة المنفعة ولولا استئثارتهم سا كني واقتداحهم كامني ما انبعثت لتلك التواليف لاتصاهر الى صديق ولا تبايعه فما رأينا هذين العملين الا سبباً للقطيعة وإن ظن أهل الجهل أن فيهما تأكيداً للصلة فليس كذلك لان هذين العقدين داعيان كل واحد الى طلب حظ نفسه والمؤثرون على أنفسهم قليل جداً فاذا اجتمع طلب كل امرئ حظ نفسه وقعت المنازعة ومع وقوعها فساد المروءة وأسلم المصاهرة مغبّة مصاهرة الاهلين بعضهم بعضا لان القرابة تقتضي العدل وان كرهوه لانهم مضمرون الى مالا انفكاك لهم منه من الاجتماع في النسب الذي توجب الطبيعة لكل أحد الذبّ عنه والحماية له

فصل في أنواع المحبة

وقد سئلت عن تحقيق القول فيها وفي أنواعها

المحبة كلها جنس واحد ورسمها انها الرغبة في المحبوب وكراهه منافرته والرغبة في المقارضة منه بالمحبة وانما قدّر الناس انها تختلف من أجل اختلاف الاغراض فيها وانما اختلفت الاغراض من أجل اختلاف الاطماع وتزايدها وضعفها أو

انحسامها فتكون المحبة لله عز وجلّ وفيه وللاتفاق على بعض المطالب وللأب والابن والقرابة والصديق وللسلطان ولذات الفراش وللمحسن وللمأمول وللمعشوق فهذا كله جنس واحد اختلفت أنواعه كما وصفت لك على قدر الطمع فيما ينال من المحبوب فلذلك اختلفت وجوه المحبة وقد رأينا من مات أسفاً على ولده كما يموت العاشق أسفاً على معشوقه وبلغنا عمن شهق من خوف الله تعالى ومحبته فمات. ونجد المرء يغار على سلطانه وعلى صديقه كما يغار على ذات فراشه وكما يغار العاشق على معشوقه فأدنى اطماع المحبة ممن تحب الحظوة منه والرفعة لديه والزلفة عنده اذا لم تطمع في أكثر وهذه غاية اطماع المحبين لله عز وجلّ ثم يزيد الطمع في المجالسة ثم في المحادثة والموازرة وهذه أطماع المرء في سلطانه وصديقه وذوي رحمه. وأقصى اطماع المحب ممن يحب المخالطة بالاعضاء اذا رجا ذلك ولذلك تجد المحب المفرط المحبة في ذات فراشه يرغب في جماعها على هيآت شتى وفى أماكن مختلفة ليستكثر من الاتصال. ويدخل فى هذا الباب الملامسة بالجسد والتقبيل وقد يقع بعض هذا الطمع فى الأب فى ولده فيتعدى الى التقبيل

والتعنيق وكل ما ذكرنا انما هو على قدر الطمع فاذا انحسم الطمع عن شيء ما لبعض الأسباب الموجبة له مالت النفس الى ما تطمع فيه . ونجد المقر بالرؤية لله عز وجل شديد الحنين اليها عظيم النزوع نحوها لا يقنع بدرجة دونها لانه يطمع فيها . ونجد المنكر لها لا تحنّ نفسه الى ذلك ولا يتناه أصلا لانه لا يطمع فيه ونجده يقتصر على الرضا والحلول فى دار الكرامة فقط لانه لا تطمع نفسه في اكثر . ونجد المستحل لنكاح القرائب لا يقنع منهن بما يقنع المحرّم لذلك ولا تقف محبته حيث تقف محبة من لا يطمع فى ذلك فتجد من يستحل نكاح ابنته وابنة أخيه كالمجوس واليهود لا يقف من محبتهما حيث تقف محبة المسلم بل نجدهما يتعشقان الابنة وابنة الاخ كتعشق المسلم فيمن يطمع فى مخالطته بالجماع . ولا نجد مسلما يبلغ ذلك فيهما ولو انهما أجمل من الشمس وكان هو أعهر الناس واغزلهم فان وجد ذلك في الندرة فلا تجده الا من فاسد الدين قد زال عنه ذلك الرادع فانفسح له الامل وانفتح له باب الطمع . ولا يؤمن من المسلم ان تفرط محبته لابنة عمه حتى تصير عشقاً وحتى تتجاوز محبته لها محبته لابنته وابنة أخيه وان كانتا أجمل منها لانه يطمع من

الوصول الى ابنة عمه حيث لا يطمع من الوصول الى ابنته وابنة أخيه ونجد النصراني قد أمن ذلك من نفسه في ابنة عمه أيضا لانه لا يطمع منها في ذلك ولا يأمن ذلك من نفسه في أخته من الرضاعة لانه طامع بها في شريعته . فلاح بهذا عياناً ما ذكرنا من ان المحبة كلها جنس واحد لكنها تختلف أنواعها على قدر اختلاف الاغراض فيها والافطبائع البشر كلهم واحدة الا أن للعادة والاعتقاد الديني تأثيراً ظاهراً ولسنا نقول ان الطمع له تأثير في هذا الفن وحده لكنا نقول ان الطمع سبب الى كل هم حتى في الاموال والاحوال فاننا نجد الانسان يموت جاره وخاله وصديقه وابن عمته وعمه لأم وابن أخيه لأم وجده أبو أمه وابن بنته فاذ لا مطمع له في ماله ارتفع عنه الهم لفوته عن يده وان جل خطره وعظم مقداره فلا سبيل الى ان يمر الاهتمام لشيء منه ببال حتى اذا مات له عصبة على بعد أو مولى على بعد وحدث له الطمع في ماله حدث له من الهم والاسف والغيظ والفكرة بفوت اليسير منه عن يده أمر عظيم وهكذا في الاحوال فنجد الانسان من أهل الطبقة المتأخرة لا يهتم لإنفاد غيره أموره بلده دون أمره

ولا التقريب غيره وإبعاده حتى اذا حدث له مطمع في هذه المرتبة حدث له من الهم والفكرة والغيظ أمر ربما قاده الى تلف نفسه وتلف دنياه وأخراه . فالطمع اذاً أصل لكل ذل ولكل همّ وهو خلق سوء ذميم وضده نزاهة النفس وهذه صفة فاضلة مركبة من النجدة والجود والعدل والفهم لانه رأى قلة الفائدة في استعمال ضدها فاستعملها وكانت فيه نجدة انتجت له عزة نفسه فتنزّه وكانت فيه طبيعة سخاوة نفس فلم يهتم لما فاته وكانت فيه طبيعة عدل حبّبت اليه القناعة وقلة الطمع . فاذن نزاهة النفس متركبة من هذه الصفات فالطمع الذي هو ضدها متركب من الصفات المضادة لهذه الصفات الاربع وهي الجبن والشح والجور والجهل . والرغبة طمع مستوفىً متزايد مستعمل ولو لا الطمع ماذلّ أحدٌ لأحد . وأخبرني أبو بكر بن أبي الفياض قال كتب عثمان ابن مُحامس على باب داره بأَستَجَة [1] ياعثمان لاتطمع

﴿ فصول من هذا الباب ﴾

من امتحن بقرب من يكره كمن امتحن ببُعد من يحب

(١) بلد بالمغرب بالأَندلس من أعمال قرطبة اه من القاموس وشرحه